على ضوء علم الاجتماع

حركات الاصلاح

للدكتور عمر حليق

الإصلاح نشاط اجتماعى . ويعرف علم الاجتماع[1] « الحركة الاجتماعية » بأنها « مجهود عملى مشترك تقوم به طائفة واعية من أفراد المجتمع لكسب ولاء الشعب ومعونته لإحداث تبديل فى الوسائل والأساليب التى تتوخى خدمة الصالح العام » . وقد يكون قالب هذا التجديد حديثا لم يصغ من قبل ، أو قد يكون إحياء « لنموذج سبق استعماله . وفى كلتا الحالتين فإن الدافع لتبديل الأساليب والوسائل ناتج عن الاستياء من الوضع الراهن وعن الرغبة فى إصلاح الأمور

إذن فالمجهود الإيجابى المشترك بين الطائفة الواعية وبين المجموعة الشعبية التى تمنحها الولاء والمعونة هو ما يعرف فى الاجتماع « بالحركة الاجتماعية » . وهذا التعريف يفترض أن يكون هدف الحركة خدمة المصلحة الجوهرية للشعب بأسره أو للكثرة الساحقة من أفراده . فقيام نفر من أعضاء جمعية معينة لتعديل دستورها أو تغيير مجلس إدارتها لا يعد حركة «اجتماعية» لأن هذا التعديل يمس مصلحة الجمعية وأعضائها ولا يهدف

الإمام محمد عبده ليس بالشىء الهين اليسير ، ولكن تقفى بالرسالة واعتزازها بالرأى الحر شجعنى على الإقدام من غير توان أو تباطؤ ، ولم يكد يمضى أسبوع واحد حتى نشرت كلمتى ونشر رد بعدها لأستاذ جليل ، وبذلك ازددت إيمانا بأن الأدب والعلم بخير فى مصر والشرق ، مادامت الرسالة باقيـــة تتلألأ طلعتها ويشرق نورها

إن ثمة خاصة من خصائص الرسالة اختصت بها وحدها فهى المجلة الوحيدة التى تعنى بالموضوعات دون أشخاص كتابها ، والتى تمهل التوقيع حتى تفرغ من قراءة الموضوع ، وبذلك أدت خدمة جليلة للأدب والعلم حيث قدمت إليهما أعلاما مبرزين ظلوا مجاهيل خلف الصفوف ، وضحايا للأثرة والأنانية حتى أخذت للرسالة بأيديهم ، وقدمت إليهم دراسات حية كانت متوارية بين أساطير الإهمال والنسيان ، وكادت تختنق بين ضوضاء السفاسف والتوافه فى شتى الموضوعات . حتى أدركتها الرسالة وأنقذتها وأعادت إليها الحياة من جديد

وبعد فإن الرسالة اليوم لجديرة بأن تكون أكبر مدرسة لطـــلاب العلم وعشاق الأدب فى الشرق ، وميدانا حرا لأبرز الكتاب ، وأقيم البحوث ، ومنبتا خصبا للرأى الحر ، والنقد الجرىء ، وعنوانا للمثل العليا فى دنيا الأدب والعلم والفضل

محمد عبد الله السمان

---

(١) كان اجتهاد المدارس الاجتماعيـة للتعرف على ميلاد الحركات الاجتماعية وتموها مقصورا على دراسات فردية لبعض النظم السياسية والفكرية والأحزاب وما إليها من أوجه النشاط الاجتماعى . ولم يكن هذا الاجتهاد يتوخى استنباط أسس علمية يوزن بها نشاط الناس وتكتلهم لتبديل وضع من الأوضاع ويوفر للباحث عوامل يستطيع معها أن يترقب ميلاد الحركات الاجتماعية وأن يتنبأ بتطورها خيرا أم شرا . وتنفرد تعاليم ماركس وشروح لينين وستالين عليها بأنها قد أولت هذه الناحية عناية خاصة — لعلها أبرز ما فى الماركسية من مادة « اجتماعية » . ولكن معظم الأوساط العلمية فى الغرب كانت ولا تزال تعالج التراث الماركسى معالجة سلبية تتعمد تجريده من كل شىء تقريبا — من الأمانة العلمية ومن الاجتهاد الفكرى الصادق وتفيه بمقاييس الخير والشر والمصالح السياسية والاقتصادية والفكرية التى تفصل العالم إلى معسكرين يبدو أن لا أمل الآن فى إزالة خصومتها

وكانت الأحداث السريعة المتلاحقة التى ألمت بالتاريخ الحديث وما أولدته من ثورات وانقلابات سياسية وفكرية حافزة أغرى علم الاجتماع بأن يولى موضوع « الحركات الاجتماعية » عناية خاصة . والفضل فى تسليط مجهر العلوم الاجتماعية على هذا الموضوع يعود إلى الفرنسيين وذلك إثر التطورات الخطيرة التى خلقتها الثورة الفرنسية فى المجتمع الفرنسى وفى المجتمعات الأوربية الأخرى . ولقد اهتم الألمان بمعالجة هذا الموضوع كما تشهد على ذلك كتابات (لورنز فون ستين) و (ماكس ويبر) و (زومبارت)

Lorenz von stein, Geschechte de Rocialen Bewegune Frnkreichs, Max weber, wirtschaft and Gesellschaft

والطليان مجهود طيب فى بحوث (روبرت ميشلز) و (ف . باريتو) و (موسكا)

Roberto Michels. Corso di sociolo c-ia Polinea, v. Pareto. Tratta di sociologia Generale

أما أوفى المراجع الحديثة فيعتقد كاتب هـذه السطور أنها للمدرسة الاجتماعية الإنجلوسكسونية ومنها على سبيل المثال :

H, Cantril, Psychology of social movementsi
S, Nevman. Permenant Revolvtion
K, Mannheim Ideology and Utopia
R, Nerberle Social Movements

وطائفة من البحوث القصيرة فى مجلات الاختصاص

مباشرة خدمة المجتمع القوى الأكبر . وبنفس النطق لا يمكننا أن نعرف « التيارات » و « الاتجاهات » الفكرية أو السياسية بأنها حركة اجتماعية . فإذا اتجه الناس نحو المطالبة بحق من الحقوق أو تبديل وضع من الأوضاع ، وإذا ساد هذا الاتجاه تيارات فكرية معينة فذلك لا يعنى أن هناك « حركة » بمعناها الاجتماعى الذى نحاول أن نعالجه فى هذا المقال

وأبرز ما يعنى به علم الاجتماع هو الحركات الاجتماعية التى تولد فى نطاق شعبى واسع وتؤثر فى صميم الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو المقدسات الثقافية والخلقية للأمة بأسرها

وعلى ضوء هذا التعريف فإن لنا أن نستنتج بأن للحركة الاجتماعية صبغة مزدوجة طابعها الهدف والإنشاء فى آن واحد . فهى موجهة ضد وضع معين تأمل الحركة فى تعديله أو إزالته ؛ وهى فى نفس الوقت طامحة إلى تحقيق برامج وأهداف إنشائية دينها خدمة الصالح العام

إذن فالحركة الاجتماعية تستند إلى عنصرين رئيسين هما : « القضايا » التى أخذت الحركة على عاتقها حلها والتغلب عليها ، و « الأيديولوجية » — المبادئ والبرامج والأهداف — التى تنوى التقيد بها وتحقيقها بمعونة الشعب ولمصلحته العامة . وهذا التحديد يدفعنا لأن نتساءل عن جوهر « القضايا » وعن أسس « الأيديولوجية » التى تؤدى إلى ميلاد الحركة وإلى كسبها ولاء الشعب ومعونته ، ومن ثم إلى الاستقرار والنجاح

وهنا يحسن بنا أن نقرر بأن السلوك الإنسانى لا ينشط ضد وضع ما ، وفى صالح هدف معين إلا حين يمر فى تجربة قاسية تؤثر فى المقدسات السياسية والاقتصادية والدينية التى يعيش عليها ، وفى المثل العليا التى تتعلق بها الجماعات الإنسانية ؛ فالحرية الفردية والكرامة القومية والقيم الإنسانية الأصيلة التى هى فى قرارة النفس تتوازى فى مجال المقارنة مع المصالح السياسية والاقتصادية . وقد تمر الجماعة الإنسانية خلال هذه التجربة القاسية فى ألوان من المحن والملمات التى تمعن فى تحدى المصلحة الشعبية ومقوماتها ومثلها العليا وقيمها الإنسانية ، ولكن الحركات الاجتماعية لا تتبلور وتنشط للعمل الإيجابى إلا حين تبلغ هذه التجربة القاسية منتهاها ، وهذا لا يكون إلا إذا كان المنتهى شاملا عاما لا يقتصر سوؤه على طائفة معينة أو مجموعة محدودة العدد من أفراد الأمة ، وإنما يمس الكيان الشعبى بأسره ، وهو كيان له سيطرة قوية على عقول الناس وأفئدتهم حتى لو ساد الناس فى بعض الحالات فتور وسلبية إزاء التجارب والمحن[٢] ...

وقد يتريث دعاة الحركة وقادتها والشعب بأسره قبل القيام بعمل إيجابى عاجل لحل « القضايا » وتنفيذ « الأيديولوجية » ولكن هذا التريث ليس إلا نتيجة حتمية لهول الصدمة التى أوجدتها التجربة القاسية . وعلم الاجتماع يقرر بأن الذيول التى تتولد عن هذه الصدمة لابد لها من أن تسير على منوال المساوئ التى كانت سائدة فى الوضع الذى أوجد الصدمة ودفع المحن والتجارب المريرة إلى المنتهى . وهذا يعنى أن سلوك أولياء الأمر فى الأمة المسؤلين عن هول الصدمة الكبرى وعن سوء الأوضاع الراهنة سيمعن فى التحدى محاولة منه للقضاء على ما تبقى فى نفسية الفرد وفى شعور الأمة من معنوية وكرامة . وهذا السلوك ظاهرة اجتماعية قل أن يشذ عنها المسؤلون عن الكرامة القومية الذبيحة وآلام النفس المعذبة

وعلى ذلك فإن ميلاد الحركات الاجتماعية (سياسية كانت أو عسكرية أو دينية) أمر لابد منه . . ومبلغ نجاح الحركات وإخلاصها لحل «القضايا» والتغلب عليها وتحقيق «الأيديولوجية» الإصلاحية الجديدة يتوقف على حدة الصدمة وفظاعة المنتهى

ويمكننا استنادا إلى هذه الحقائق الاجتماعية أن نؤكد بأن جوهر « القضايا » التى تتولى الحركات الاجتماعية معالجتها والتغلب عليها يتوقف على مبلغ الخطر الذى تتعرض له مقومات الحياة القومية ومصالح الشعب السياسية والاقتصادية والقيم والمثل العليا التى تعيش عليها الكثرة الساحقة من أفراد الأمة

أما جوهر « الأيديولوجية » — المبادئ والبرامج والأهداف — التى تؤمن الحركة وتعمل لتحقيقها فيتوقف على مفهوم الحركة وقادتها لحقائق هذه « القضايا » وأى منها كان السبب المباشر للصدمة التى ألمت بالكرامة القومية وبمصلحة السواد الأعظم من الشعب . وهل سوء الجهاز الإدارى هو

(٢) لا ريب أن محنة المصريين واليونانيين والعرب والمسلمين جميعا فى تجربة فلسطين القاسية مثل على هذا المنتهى

ضعف القوة العسكرية أم فقدان القيم الدينية وانحلال القيم الأخلاقية وتفشى المساوئ الاجتماعية ؟ وهل الخطر الذى يهدد الكيان القومى موجه من عدو يرتقب ؛ أم أن أعداء الأمة هم الفاسدون من قادتها وأبنائها ؟

وعلى مدى تقدير الحركة الاجتماعية الجديدة لحقائق هذه «القضايا» يتوقف استقرارها ونجاحها ومبلغ ولاء الشعب لها. وعلى ذلك فكلما كانت الحركة ورجالها نتاجا « شعبيا » شديد الصلة بالعناصر الأصيلة التى يتكون منها السواد الأعظم من أبناء الأمة كان فهم الحركة ورجالها لحقيقة هذه القضايا صادقا أمينا ، وكانت « أيديولوجيتها » مطابقة لمصلحة الشعب متمشية مع شعوره الصادق وضميره الحى ومنفذة لما يدور فى خلده من آمال وما يطفح به فؤاده وعقله وعواطفه من حماس ورغبة فى مؤازرة الحركة والاندماج فيها والتضحية فى سبيلها كأحسن ما تكون تضحيات الأمم الحية فى معركة الحياة الشريفة

والحركة الاجتماعية الناجحة هى التى تؤمن بما تعمل . وتعزيز القول بالعمل لا يكفى إلا إذا توفر للحركة مرونة فكرية طابعها الحكمة لا التزلف . فعليها أن توازن موازنة صادقة لحاسية الشعب — أو بالأحرى أغلبيته العظمى . فإذا لمست الحركة أن جزءا كبيرا من الأمة يؤمن بأن الإصلاح يجب أن يشمل إحياء القيم الدينية ومكافحة الفساد وما أولده من انحلال فى القيم الأخلاقية فجدير بالحركة أن تجعل لهذه الناحية من الإصلاح مكانا راسخا فى « أيديولوجيتها »

وإذا أدركت بأن بين المواطنين طائفة مخلصة واعية تصر فى قرارة النفس على أن التنمية الاقتصادية والعدالة الاقتصادية والاجتماعية يجب أن تنال مكان الصدارة بين أهداف الحركة فمن الخير لإيديولوجية الحركة أن تولى ذلك عناية خاصة

وإذا تحقق للحركة والمسؤولين فيها أن الحاجة ماسة لتعزيز الدفاع العسكرى إلى أقصى حد مستطاع فما عليها إلا أن تلبى هذه الحاجة — فهى كحركة شعبية صلتها وصلة قادتها بالشعب صلة الأغصان بالجذوع كفيلة بأن تضمن حماس الأمة وتضحيتها فى سبيل المناعة العسكرية ، وجعل ذلك مبدأ أساسيا من مبادئ الأيديولوجية الجديدة

وهناك طبعا سبيل لا حد له من آراء الناس فى أوجه الإصلاح وأيها أولى بالعنايه من سواه

والمهم عند تقرير الأيديولوجية أن توازن الحركة فى مبلغ الحماس الشعبى الصادق لأوجه الإصلاح ومبلغ شعور الشعب وتقديره لأخطار « القضايا » والمشاكل التى تتحدى سلامة الكيان القومى . فليس المطلوب من الحركات الاجتماعية أن تتقيد بمعالجة قضية واحدة . فالعوامل التى توفر للحركة النجاح والاستقرار عديدة ، وكثرتها تتوقف على كثرة الأخطار الناتجة عن هذه القضايا والمشاكل . ولذلك فلا مفر للأيديولوجية أن تتضمن أكبر عدد ممكن من البرامج والأهداف التى تكفل التغلب على هذه الأخطار

والدراسة الاجتماعية للحركات الإصلاحية تثبت صواب الرأى فى اتخاذ قضية أو أكثر من قضايا الأمة كعنوان للأيديولوجية الجديدة ، إلا أن هذه الدراسة تؤكد كذلك أهمية إدراك الشعب للأخطار التى سببت له المحن والمساوئ فى العهد أو العهود التى استبدلتها الحركة الجديدة

فالحركة الشعبية الناجحة تولد عادة فى جو اجتماعى اعتاد السماع لدعوات الإصلاح من دعاة أساءوا فهم المشاكل الرئيسية العميقة التى تواجه الأمة ، ولذلك تفشل هذه الدعوات فى كسب ولاء السواد الأعظم من المواطنين. فولاء السواد الأعظم وإخلاصه فى مؤازرة الحركات الجديدة هو ميزان الاستقرار والنجاح ، وعلى ذلك فإن الخطأ الذى ترتكبه معظم الأحزاب السياسية (وهى تقليد مشوه للحركات الاجتماعية) هو تصويرها القضايا القومية على نحو لا يستند إلى فهم أمين لضمير الشعب ، وإنما هو فهم مشوه اقتبسه قادة الحزب من شعورهم الخاص وهو شعور تتضارب فيه المصالح الذاتية — شعور يتزلف فى أغلب الحالات إلى أوساط ليست من صميم الشعب وليست عنوانا على شعوره ويقظته ومصالحه ، أوساط تنتمى إلى هذه الفئات الطفيلية التى تعيش على الشعب لا معه

والشعب — أو بالأحرى الجزء الهام منه — يتحفظ فى إعلان الولاء وبذل التضحية للحركات الناشئة إذا توفرت له عوامل نفسية معينة سجلها علم النفس الاجتماعى فى دراسات لنفسية الجماهير وعقليتها ، وطبيعة الزعامة الصالحة ومقوماتها ، وإلى

الأخطار والتجارب التي مرت بها الأمم في نشاطها الاجتماعي ، كما أشرنا إلى ذلك في صلب هذا المقال

وبعض هذه العوامل غامض يحمل أكثر من تفسير واحد، والبعض الآخر محدود الصفات واضح المعالم إدراكه سهل ميسور

على كل دعنا نستعرض فيما يلي بعض هذه العوامل مادمنا في حديث الاجتماع وعلمه ولو كان ذلك على حساب أدب المقال في غير مجلات الاختصاص

ا — يجب أن تكون القضايا التي تولت الحركة معالجتها شديدة الصلة بالمصلحة الشعبية العامة وبالمصلحة الخاصة لأكبر عدد ممكن من المواطنين

ب — للحركة الاجتماعية الناشئة أن تبدأ بمعالجة القضايا التي بها مكان الصدارة في شعور الناس ويقظتهم العاطفية والفكرية، وحين يقتضي الوضع تفضيل قضية على أخرى فللحركة أن تعالج قضية واحدة معالجة عامة شاملة وتبدأ في نفس الوقت بمعالجة القضية أو القضايا التي تليها في الأهمية معالجة جزئية — على ألا يكون لهذا التوزيع هدف غير الموازنة العادلة بين أهمية القضايا في تفكير الناس وفي مبلغ صلتها بالصالح العام وبمستقبل الحركة وأيديولوجيتها وأثر ذلك كله على الكيان القومي ومصلحته الجوهرية

جـ — يؤكد علم الاجتماع[٢] أن استقرار الحركة الاجتماعية الناشئة لا يتوطد إلا إذا كانت أيديولوجيتها حاوية لقيم وأهداف تمس المنفعة الشخصية للكثرة — الغالبة — من أفراد الشعب . والمنفعة الشخصية شيء والشعور الشعبي المشترك شيء آخر ، وإن كان كلاهما يعزز الآخر . فالأهداف الوطنية مثلا شعور شعبي مشترك، أما العدالة الاقتصادية والمساواة الاجتماعية وصيانة القيم الدينية والأخلاقية فإنها أهداف تخدم المنفعة الشخصية لكل فرد من أفراد المجتمع ، أو على الأقل أولئك الذين حرموا منها — وهم كثرة في معظم المجتمعات الإنسانية

د — حين تختلف أوساط المجتمع في توكيد أهمية قضية ما على غيرها من القضايا التي يشغل بها الناس وتعالجها الحركة الجديدة فإن الضرورة تقتضي مجهودا صادقا يصدر عن الحركة والمسؤولين فيها ليقرر أولوية القضايا ويسعى جادا مخلصا لإقناع السواد الأعظم من المواطنين بها حرصا على سلامة وحدة الشعور الشعبي وتماسك اليقظة العاطفية والفكرية . وهذا المجهود يفترض خلة توحيد فكري وعاطفي واسعة النطاق يضمن نجاحها هذه الأيام المواصلات الفكرية الحديثة — الصحف والإذاعة والأفلام وما إليها من وسائل الدعاية والثقافة الشعبية

* * *

هذا رأي علم الاجتماع في بعض نواحي الحركات الإصلاحية ، وهو رأي وإن كان لا يصح أن يؤخذ على أنه القول الفصل في تصور الحركة الاجتماعية ونضوج ثمارها فلكل حدث اجتماعي ظروف خاصة وتيارات وعوامل طارئة تتطلب مرونة لا حد لها في الاجتهاد العلمي — إلا أن الخطوط العامة للاستنتاج العلمي تؤكد في تواضع مقدرتها على تسليط ضوء نافع على جوهر السلوك الإنساني

عمر مليبي

(٢) في بحث البروفسور تيودور آبل عن نموذج الحركة السياسية الناجحة في مجلد ٣٧ من المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول

من كتاب

وحي الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق ثقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً

وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد